الفصل الخامس عشر
المجاعة والحرب

طرفة ـ أخت الأمير فواز ـ التي تزوجت محجم بـن مهيـد أمـير الفدعـان ـ ماتت فجأة. وبالتالي ماذا يستطيع الأرمل ابن الخامسة والخمسين أن يفعل سـوى أن يخطب أختاً أخرى لأمير الرولة وهي فوزه ابنة السبعة عشر ربيعاً. رفض الأميرُ فوازٌ ابن مهيد زوجاً لأخته الصغيرة، وصرّح معلناً أمـام الرجـال فـي المجلـس أنـه يراه عجوزاً بالنسبة لها، ولذلك استشاط أمير الفدعان غضباً، وأقسم على الانتقام، حرض القبائل المجاورة للفدعان على الانضمام إليه في حـرب ضـد الرولـة. وبـدا الآن أن المجاعـة التـي يهـدد بهـا الجفـاف فـي الحمـاد ومنـاطق الرعـي الأخـرى ستكون حليفاً قوياً لأعداء الأمير فواز. سيضطر خمسـة وثلاثـون ألـف نسـمة مـن الرولة بخيامهم التي يبلغ عددها سبعة آلاف خيمة، وجمالهم التي تبلغ ثـلاث مئـة وخمسين ألف جمل إلى غزو مناطق رعي أعدائهم، مـا لـم يهطـل المطـر الكـافي على الحماد خلال الأيام القليلة القادمة.

حتى الآن سارت الحياة سيرها المعتـاد، ولكـن خيـم فـوق الجميـع شـبح العطش والجوع والموت. الرولة لا تخاف الحرب ألم يكونوا الأقوياء والمنتصرين لمدة مئة وسبع وثلاثين سنة؟ لم تثر نشاطات ابن مهيد حتى الآن شـكوك الرولـة،

ولكنه عملياً ضم إلى الفدعان ثماني قبائل أخرى، ولم يبق سوى الذَّريعة المناسبة. وساعدتهم الطبيعة في نفس الوقت على تحطيم معنويات الرولة الأقوياء.

وهبت الرياح الحارة فوق الحماد والسهوب السورية دون أن تسقط قطرة واحدة من المطر، وخيم فوق شمال الجزيرة حر شديد أدى إلىذبول كل شيء، واندفعت الرولة إلى الأمام أسرع وأسرع وأطالوا مسيراتهم اليومية. وغطّت القطعان البرية الأفق، وبدا كما لو أن الرعاة فقدوا كل سيطرة على الحيوانات الجائعة العطشى. في كل صباح كانت تغطي الجمال الصحراء ـ كسحب الجراد ـ على جبهة عرضها ١٥ ــ ٢٠ ميلاً. وكانت النباتات الصغيرة الذابلة، الطعام الوحيد. كما كانت كمية الرطوبة القليلة في النباتات هي منقذهم الوحيد من الموت عطشاً.

هناك شيء هائل خيالي في صراع الإنسان والحيوان للبقاء ضد قوى الطبيعة الغاشمة. فالذين لم يكونوا أنداداً لهذا الصراع استسلموا بهدوء. تحركت القطعان التي لا تحصى ببطء فوق السهول الواسعة، التي أظهرت هنا وهناك بعض اللمسات الخفيفة من لأعشات الأقرب إلى اللون الرمادي منها إلى الأخضر، واكتشفتُ لدهشتي أن اليرقات السمينة المغطاة بالشعر ذات اللون الأحمر الآجري الموجودة على كل ساق وزهرة ـ على الرغم من الجفاف ـ ساعدت ليس فقط على تغذية مئات الآلاف من طيور الصحراء والحباري والغزلان، بل أيضاً جمالنا وخيولنا. قطعان الغزلان هربت من الموت في الصحراء محاولة بجهود أخيرة للوصول إلى نهر الفرات البعيد. وبدا كأن نيراناً هائلة انتشرت من قلب الجزيرة العربية، وأن الإنسان والحيوان يهرب من أنفاسها المهلكة.

قانون الطبيعة الأزلي يجري كحقيقة: الموت للضعيف والمشوه والمنبوذ. يدوس القوي على الضعيف مكتسباً قوة وقدرة احتمال جديدة على الاستمرار من ضحاياه. وعلى الرغم من أن المجاعة اجتاحت البلاد فإن العبيد في مخيمات الزعماء قدموا لضيوف رؤسائهم كل ما يحتاجون إليه. في كل صباح قدِّم لي للإفطار صحن من البيض الممزوج المصنوع من عدة بيضات صغيرة من بيض

الطيهوج الصحراوي وله نكهة قنص خاصة، وكذلك الصحن المشابه المصنوع من بيض الحباري الأكبر حجماً. وقد شويت الكمأة على جمرات النباتات وبعر الجمال وتشققت قشورها من الحرارة. في كل صباح وجدت بجانب إناء الحليب إناء من العسل البري تطفو على سطحه قطع كثيفةمن زبدة حليب الغنم. وأثناء الأكل كنت أراقب العبد يخبز الخبز. كان يصب خليطاً من دقيق القمح الذي يشبه العصيدة والبذرة والحشائش المطحونة فوق صفيحة معدنية محدبة حارة مرتكزة على ثلاثة مساند فوق النار. في البداية انتشر العجين السائل فوق هذه الصفيحة ثم انكمش بفعل الحرارة وشكّل أرغفة كبيرة بنيّة وسميكة انتزعها العبد واحداً بعد الآخر ورماها إلى أحضاننا. ومزّقنا قطعاً شريطية من هذه الرقائق البنية الهشة الأطراف، ولففناها حول أصابعنا، وبهذه اللُّقم اصطدنا الزبدة من العسل. نحن الغرباء والضيوف لم نعان من الكفاف على الرغم من أن معظم الرولة وحتى بعض الزعماء عانوا من الجوع.

ومن المؤثر أن ترى البدوي نصف الجائع يحمل إلى خيمة شيخه أرنباً وحشياً أو غزالاً أو أية طريدة أخرى إسهاماً في تغذية ضيوف الأمير. حتى الأطفال والنساء كانوا يأتون كل يوم إلى خيمة الزعيم ويخرجون من أكياسهم بضعة كمآت أو حمامة برية. في إحدى المرات أحضر لي أحد الأولاد سحلية ثمينة كبيرة قتلها بحجر، ثم أحضر لي **غريراً** ثم نسراً أصفر الرأس. وتساءل الولد إن كنت أسمح له ـ في مثل هذه المجاعة ـ أن يقدم لي مثل هذه الحيوانات طعاماً.

وسارت الرولة وراء قطعانهم المشرفة على الهلاك ببطون خاوية ومعنويات منهارة. واستمروا بالضغط نحو الشمال بالقرب من أراضي أعدائهم. وفي كل يوم كان يسقط في الطريق مئات الجمال وكثير من الناس، بينما أجهد الأحياء أنفسهم بيأس متزايد للوصول إلى تلال **أبي رجمين**. وبقي الضعفاء حيث سقطوا. وكلما بدأ أحد الجمال ـ بعد نفاد قوته ـ بالتأرجح وأنذر بالسقوط قفز الركاب المجاورون عن راحلاتهم واندفعوا نحو المخلوق المسكين ووضعوا حداً لآلامه.

وفي نفس الوقت تابع الآخرون مسيرتهم دون أي اهتمام ودون قيود. ويقطّع الرجل المتخلف الجمل خلال بضع دقائق، ثم يسرع للحاق بالقبيلة تاركاً خلفه الأحشاء والرأس والسيقان على الأرض المطروقة.

تزايدت الخسائر في الجمال يوماً بعد يوم من بضع مئات في اليوم إلى أعداد مشؤومة، إذ حسب أقوال فواز مات حوالي ألفي جمل في اليوم أو اضطروا لقتلها.

إلى الأمام دائماً إلى الأمام. على الرغم من أن القبائل المعادية حاولت وقف هذا المد من الناس والحيوانات الجائعة. واغتصب السابا والفدعان بعض القطعان الصغيرة، ولكن القطعان الرئيسية للرولة ما زالت بأمان حتى الآن. تزايد عدد المناوشات والغارات بابتعاد الرولة عن أراضي ابن سعود المستقلة وعبور الأردن والدخول إلى سورية، وهنا أنذر الوضع بالخطر. حلّقت الطائرات الفرنسية فوق هذا البحر القلق من الرجال والحيوانات، ولكن هذه الطائرات كانت استكشافية فقط، تحاول التأكد من قوة الرولة الغزاة.

لا يستطيع الفرنسيون ـ دون احتجاج ـ السماح لأمة كاملة من البدو والمحاربين بالتجول ضمن أراضيهم وغزو سورية. والمستوطنون في منطقة الانتداب الفرنسية ارتعدت فرائصهم خوفاً من الحرب بين القبائل البدوية والاستعدادات للدفاع عن قراهم وحقولهم. وعلى العكس من ذلك فإن الدروز ـ وهم قوم محاربون في جبال حوران ـ فرحوا توقعاً للاضطرابات الجديدة في سورية التي يمكن أن يكسبوا منها أكثر مما كسبوه من الاضطرابات الأخيرة التي لم يتخذ فيها الرولة ـ الأعداء التقليديون للدورز ـ موقفاً ضد الفرنسيين. وأدركت السلطات الفرنسية الخطر في الحال، وأمرت فوراً بأن يكون طريق القوافل القديم من دمشق إلى تدمر ودير الزور (الذي يمر جنوب هضاب أبي رجمين ويتفرع قرب تدمر باتجاه بغداد) أقصى حد شمالي لا تستطيع الرولة أن تتجاوزه طلباً للكلأ. لا يستطيع أحد أن يعبر هذا الخط إذا كان راكباً أو مسلحاً. الآن بإمكان أعداء الرولة أن يحققوا انتصارهم **فالسابا والموالي والحديديون** والآخرون انضم

إلى جانبهم قانون البلاد وقوة الحكومة الفرنسية وهم كلهم حلفاء ابن مهيد! ماذا تهمهم آلام الرولة؟ إنهم وجدوا فقط في متناول اليد الفرصة السانحة للانقضاض على الرولة الأعداء وامتلاك قطعانهم.

في أحد أيام نيسان بدا أن محنتنا وصلت القمة التي لا يمكن بعدها الاحتمال ـ عندما أحاط الموت بكل رجل وحيوان. دخلتُ خيمة فارس المنصوبة على هضبة صغيرة على مقربة مني. وجدت الخيمة فارغة. ربما كانت أمه وأخته تجمعان الكمأة والجذور والأعشاب الجافة للوقود. عندما استلقيت قرب الموقد المتوهج داخل الخيمة سمعت صوت فارس بن نايف خلف الخيمة عالياً ومنفعلاً، وهو شيء استثنائي بالنسبة له لأن هدوءه وتمالك نفسه حتى الآن كانا مضرب المثل. لم يكن فارس مادياً ولا متديناً بل رجلاً أخلاقياً لم أصادف مثله بين البدو، ولذلك استغربت سماع فارس يشاحن شخصاً آخر بهذا الانفعال. ولكن عندما مشيت حول الخيمة ورأيته زال الاستغراب. وقف فارس بقبضتين مطبقتين ووجه مرفوع نحو السماء في وضع المتضرع. لا بد أنه ظن أنه بعيد عن المراقبة البشرية وأنه لا يخاطب البشر. إنه يدعو الله ودعاؤه تعبير عن آلام روحه. وسمعته يقول: «إنك رحيم ـ إنك ترى معاناتنا وقد أصبح الموت قاسياً. إننا نموت جوعاً. واليائسون لا أمل لهم إلا عندك...» كان فارس مسلماً بالاسم فقط. كان يصرخ كطفل يخاطب أباه. تضرع وغضب بالتناوب، طرق الأرض بقدميه وأطبق قبضته بغضب العاجز، وأطرق برأسه بتواضع، ورفع نظره بغضب، ولكنه أيضاً بكى بمرارة ومدّ يديه الخاليتين وصاح: «يا إلهي! الناس تموت. الرجال والحيوانات تموت جوعاً. أعطنا المراعي أعطنا الماء! أعطنا الخبز! أعطنا السلام!».

ودون أن يراني عدت إلى خيمته. جلست بجانب الموقد وأخذت أغرس الملاقط في البعر المتوهج ومددت يدي فوقه. وبحركة لا إرادية ضممتها وفكرت في إيمان فارس الصبياني وبدأت ـ أنا أيضاً ـ في التضرع إلى الله طلباً للعون «لا بد أن تساعدنا! فالحاجة عظيمة! القطعان تتضور جوعاً والأمة تموت».

عندما رفعت بصري وجدت فارساً يقف أمامي فسألني بحنان: «هل أنت حزين ياأخي؟».

نهضت وأمسكت بيديه الممدودتين وقلت له: «كلا! لست حزيناً الآن لأن الله لن يحرمنا من بركات السماء» في تلك اللحظة رأينا الأمير فوازاً مع حرسه يمر أمامنا. ورأونا هم أيضاً فأتوا وجلسوا في الخيمة. وأثناء الحديث قال فارس للأمير «اسمح لنا أن نسافر ـ أنا وعزيز ـ إلى أعدائك ونتفاوض معهم. فإذا قبلوا وشاركونا في مراعيهم فلن يعترض الفرنسيون».

وركز الأمير الشاب عينيه الغاضبتين على فارس وصاح: «سننصرف ولكنا لن نتفاوض معهم. سنستولي على ما نريد من مراعي الأعداء. فبدون طعام لن تكون هناك جمال ولا حياة لنا بدون جمال. ألم تدرك ذلك؟» ورد فارس بطريقته اللطيفة: «أفهم ذلك أليست عادة عندنا أن يتوسل المرء للإبقاء على حياته عندما تدفعه الحاجة ولو كان التوسل للأعداء؟» حقاً! إن طريق السلام أقصر من الطريق الذي يكمن فيه الدمار». لم يجب فواز كما أن بقية الحاضرين في الخيمة لم يتكلموا. وفجأة نهض الأمير فواز ومشى إلى العبد الذي كان يسقي فرسه فركب وذهب.

* * *